# اختلاجات في حضرة محمود درويش

سعدي يوسف

## السابعة مساء التاسع من آب

مساء التاسع من آب ( أغسطس ) 2008 ، كنت في برلين، أدخلُ مع الشاعرة الإسكتلندية جوان ماكْنلِي مقهىً يرتاده ذوو الحاسوب المحتضَن ( اللابتوب ) .

كانت الساعة حوالي السابعة .

صيفٌ ألمانيٌّ .

في الرصيف التابع للمقهى زبائنُ يدخّنون سجائرهم .

أنا أنظر عبر الزجاج إلى الرصيف وأهله .

جاءت جوان ماكنلي بكأسي جُعةٍ كبيرتين .

ما زلتُ أنظر إلى الشارع عبر الزجاج . مددتُ يدي إلى كأس الجُعة ، فارتدّتْ .

كنت أحسُّ بإحباطٍ وإنهاكٍ، وبين لحظةٍ أخرى تعتريني رجفةٌ خفيفةٌ .

لم أكن في المكان .

كان شيءٌ ما يأخذني بعيداً عن المكان، عن جليستي، عن كأس البيرة الألمانية، عن كل شيء .

قلتُ لجوان : أنا أرتجف برداً !

لم نكن في مهبٍّ للريح . لكنّ برداً قادماً من سيبيريا ما كان يدخل إلى المقهى ، ليُرعدَني وحدي .

اقترحتْ عليّ أن نصعد إلى الطابق الأوّل ، اتّقاءَ بردٍ خاصٍّ بي .

حملتْ كأسَي البيرة .

وهناك بين ذوي اللابتوب المنهمكين جلسنا . ثانيةً لم أمدّ يدي إلى الكأس .

حالةُ القنوطِ ظلّت ملازمةً .

لم يكن القنوط وحده .

كنت ضائعاً ، أتيهُ بين فلواتٍ بلقعٍ ، في قرٍّ مؤذٍ . في عالَمٍ من أذىً صافٍ دائمٍ كالقانون الطبيعيّ .

تلك الليلةَ ، لم أقوَ على العودة إلى شقّة ابنتي شيراز في ضواحي العاصمة الألمانية ، فأويتُ إلى شقّة جوان لأنامَ كمداً !

*

عدتُ في الضحى العالي إلى ابنتي .

قالت لي إن اسماعيل خليل ( المسرحي ) اتصلَ بي منتصف الليل .

هل قال شيئاً ؟

كان يريد أن يخبرك ، برحيل محمود درويش !

*

إذاً . . .

في حوالي السابعة من مساء التاسع من آب ( أغسطس ) كان محمود درويش ، يرحل عنا ، في مستشفاه الأميركيّ .

هل كنتُ أحاولُ الاتصال به ، وأنا في المقهى ؟

هل مرقتُ في خطفةٍ أمام عينيه الغائمتَين ؟

لقد كنا في باريس ، في السابع من حزيران هذا .

جاء إلى أمسيتي بمسرح الأوديون . لكنه قال لفاروق مردم ألاّ يخبرني بأنه هناك .

التقينا بعد انتهاء الأمسية .

قال لي : أنا راحلٌ غداً .
هل حملت كلماتُه هذه، الأقصى ممّا يمكن أن تحمل ؟
هل كنا نقول: وداعاً ؟

❋

قالت لي منى أنيس: كان محمود يودّعك !

لندن **27.08.2008**

## مساءٌ في آب 1982 بيروت

الصيف المنكسرُ، يستمرّ حتى في المساء .
بيروت محاصَرة ، والإسرائيليون على الأبواب .
الظلام يُطْبِق على المدينة كما يطْبِق الدخان الثقيل . شارع الحمرا يبدو مهجوراً للوهلة الأولى .
إلاّ أنه محتشدٌ بالأشباح ، أشباحِنا ، وأشباحِ رؤانا ، محتشدٌ بأنفاسنا المختنقة . لا ماء في المدينة .
لا كهرباء . نحن، السائرين
هائمين في الظلام ، وحدَنا ، نخدشُ حقيقةَ أن المدينة ميتةٌ وقد غادرَها أهلُها ، إلى الشمال :
طرابلس والضّنّيّة ،
أو جنوباً حتى المناطق التي احتلّها الإسرائيليون .
الغرباء في المدينة هم السائرون في الظلام ...
نسير في العتمة .
مصابيحنا اليدوية ذوات البطاريات الصغيرة ستضيء لنا السلالم آنَ نعود إلى غرفنا التي تظل
تهتزّ حتى في الليل من انفجارات النهار .
مصباحٌ يدويّ يتّقد فجأةً .
أأنت هنا ؟
محمود درويش في ليل الحمرا !

❋

وجهانا في دائرة الضوء الضيّقة كانا متّسعَينِ .

لندن **29.08.2008**

## أواسط السبعينيات ببغداد

ربما كان ذلك في النصف الأول من السبعينيات .

كنا ، على ما أتذكّر في منزل ناهدة الرمّاح .

محمود درويش كان في بغداد المتفتحة ( على آفاق كاذبة ؟ ) آنذاك .

زار « طريق الشعب » ، واحتفى بلقاء شيوعيين وشعراء كان عرفهم في أكثر من مكان ومناسبة .

تلك الليلة امتدت السهرة أكثر من المعتاد .

أغانٍ وموسيقى وأنهارٌ من الرحيق المصفّى .

وكان عليّ أن أوصل محمود درويش إلى فندقه بسيارتي الرينو 16 التي كادت تنفجر بعديد ركّابها .

محمود درويش كان إلى جانبي .

ننحدر من جسر الجمهورية .

فجأةً يغيب كل شيء أمامي .

ألتفت لحظةً إلى محمود درويش لأسأله : أهذا شارعٌ أم حائطٌ ؟

يقول : هل أوصاك أحدٌ بقتلي ؟

السيارة تندفع في شارعٍ بغداديّ ، بلا مارة ولا سيارات ...

شارعٍ بغداديّ في الفجر المبكر .

محمودٍ درويش سيظل يسألني كلما التقيتُه ، متذكراً رعب تلك الليلة :

أشارعٌ أم حائطٌ ؟

لندن **29.08.2008**

## قمرُ بغدادَ الليمونيّ

لستُ أعرف سبباً لـ « نرفزة » كتّابٍ عراقيين معيّنين ، من وصفِ محمود درويش قمرَ بغداد بالليموني .

قمرُ بغداد ليمونيّ ، حقاً ، لكن يبدو أن العراقيين لا ينظرون إلى السماء جيداً .

ألم يقُل الجواهريّ العظيم :

لم يعرفوا لونَ السماءِ لفرْطِ ما انحنت الرقابُ

ولفرْطِ ما دِيسَتْ رؤوسُهمو كما دِيسَ الترابُ

ما علينا ...

أكان ذلك في أواخر الثمانينيات؟

1989 مثلاً ؟

آنذاك كنت مقيماً، على قلقٍ، بباريس.

محمود درويش كان يسكن بالتروكاديرو، عضواً في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية.

كنا نلتقي .

أحياناً أدعوه إلى الخروج معي.

أقول له: دعني آخذك يا محمود إلى باريس الأخرى. إلى مقاهي الجزائريين، وحانات المغاربة، ومطاعم الأفارقة. دعني آخذك إلى الضواحي ...

يقول لي: أنا أحسدك. أنت تتجول كما تشاء. تتعرف على باريس بطريقتك. أمّا أنا فسوف يتبعُني خمسةٌ من الحماية !

❋

في أحد الأيام تلقّيتُ مكالمةً هاتفيةً من محمود .

قال: يجب أن أراك اليوم .

قلت: ليكُنْ !

كان اللقاء في مطعمٍ غير بعيدٍ عن مسكنه. طلبتُ بطّاً ، فجاءني طبقٌ به لحمُ بطّ شبه نيّء ، في رقائقَ تكاد تشِفّ !

❋

من كان معنا ؟

لا أتذكر جيداً ، لكني أظن فوّاز طرابلسي الجليسَ الثالث .

❋

قال محمود : عدتُ اليوم من النرويج . من قريةٍ قصيّةٍ بالنرويج . أريد رأيك في أمرٍ مُلِحٍّ .

قلت : أمرك !

قال : يا سعدي ، اسمعْني . . .

تلقّيتُ دعوةً لحضور المربدِ، ولجائزةٍ تُسَلَّمُ إليّ إنْ وقّعتُ مسبقاً على قبولها . رفضتُ الأمرَين كليهما . ورغبةً مني

في تجنُّب الأخذ والردّ ، سافرتُ إلى النرويج ، وأقمتُ في قريةٍ قصيّة . لكني في منتصف الليل تلقّيتُ مكالمةً

هاتفيةً من أبو عمّار ، نصُّها : هل تريد أن تخرب بيتنا يا محمود ؟ يجب أن تذهب إلى بغداد!

قلت : هكذا ؟

قال محمود : نعم . . .

الآن أريد رأيك !

إنْ قلتَ لي : لاتذهبْ ، فلن أذهب !

❋

ما كنتُ بحاجةٍ إلى أن أُنعمَ النظرَ .

قلت له : أنت في هذا الموقف، لستَ محمود درويش . أنت عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية . ممثلٌ رسميٌّ لشعبك وقضيّته . أنت تضحّي من أجل قضية شعبك . ليس بمقدوري ، ولا من حقي أن أقول لك لاتذهبْ .

لكني سأظل أتذكّر ، بكل اعتزاز ، أنك استشرتَني ، مبدياً استعدادك للأخذ بما أرى !

❋ ❋ ❋

قمر بغداد الليمونيّ !

30.08.2008